الانتقام

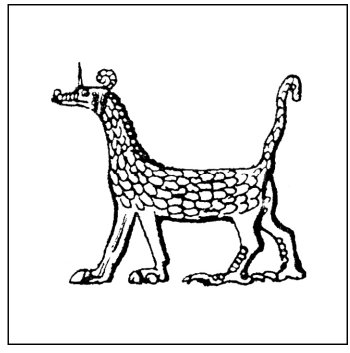

أنا قتلت سوباروما[1]
وحولت بلاده إلى تلال وخرائب

من كتابة نابوبلاسر
ملك بابل

ظل آشور بانيبال في ذاكرة الإنسانية بصورة سفاح محاط بأبهة خيالية منغمس في الرذائل القبيحة لمجالس الطغاة الشرقيين وبهذه التسمية صار معروفاً عند اليونانيين ومنهم لبقية الناس، إلا أن علماء الآثار اكتشفوا في أواسط القرن التاسع عشر خرائب العاصمة الآشورية نينوى ومَثَلَ أمامنا آشور بانيبال آخر - محارب جريء جميل وفارس حاذق مولع بالصيد خبير دقيق بالثقافة والفن مؤسس مكتبة نينوى أغنى مكتبة في الشرق القديم.

وفي النهاية عند دراسة الشواهد البابلية المكتوبة المؤلفة بعد آشور بانيبال بمئة عام ظهر أن ذكراه في بابل كانت محاطة بهالة ولاء خاصة في الوقت الذي اعتُبِرَ فيه البابليون بالذات ضحايا وحشيته بالدرجة الأولى. ويبدو أن التقييمات الثلاثة لا تتفق مع بعضها بعضاً ولكن يبدو منها حسب اعتقادهم ليس فقط انعكاسات لخصال متعددة لشخصية آشور بانيبال، وإنما لأخلاق موطنه آشور في السنوات العشر الأخيرة من حياته، وتراكمت في نينوى كنوز هائلة منهوبة من بابل وسورية وفينيقيا وفلسطين وأورارتو ومصر وعيلام والبلدان الأخرى للشرق الأدنى التي داستها الجحافل الآشورية، هذه المدينة الهائلة نمت على حساب معاناة الشعوب المستعبدة، نينوى المدينة الدموية اشتهرت حقيقة بفجور أذهل حتى العالم القديم الذي لم تكن تعجبه مثل هذه الأشياء بسهولة، وفي الوقت ذاته صارت عاصمة آشور مركزاً للقيم

أ- سوباروما: التسمية القديمة لشمال ميزوبوتاميا «بلاد ما بين النهرين٩ وتعني هنا آشور.

obeikandi.com

الثقافية لحضارات الشرق القديم الغانية التي استفاد من خيراتها حكام العالم الآشوريون.

وكان آشور بانيبال، أمير الإمبراطورية الأضخم في زمانه، الشخصية الأكثر تعدداً للمواهب. فقد خرج وجهاً لوجه أمام الأسود ووزع وقت فراغه بين الحفلات التهتكية والمكتبة، وتنعم برؤية النقوش البارزة للقصور النينوية التي تعود إلى أزاميل أشهر نحاتي العالم. وسموا عاصمته نينوى بعرين الأسود، وعند بوابتها الشرقية «مدخل جموع الشعوب» ربطوا في الأقفاص بسلاسل الكلاب الملوك من أسرى بانيبال. ودقوا في الأجران عظام أجدادهم المنبوشة من القبور، وغطيت أبراج وجدران نينوى بالجلود المسلوخة من أعداء آشور بانيبال، واستخدم الأسرى العرب في أسواق المدن الآشورية عملة صرف - صرافة» ودفعوهم ثمناً لإبريق بيرة أو قرميدة «آجره» أو أجرة بستاني. وزنق النير الآشوري العالم.

ولكن في الوقت نفسه لم يستطع آشور بانيبال أن ينسى أن ميديا[أ] في سنة «٦٧٤-٦٧٢ ق.م» ومصر في سنة «٦٥٤ - ٦٥٣ ق.م» وليديا قد حصلت على استقلالها ولم يكن عنده القوى لإخضاعها من جديد، وفهم أن الكيميريين والسكيث[ب] القادمين من السهوب الغامضة عند البحر الأسود ها هم قد أقلقوا الحدود الشمالية للإمبراطورية، وضايقت الحالة الداخلية لآشور آشور بانيبال أكثر من ذلك، فقد عرف جيداً أن الإمبراطورية لا تصمد فقط إلا بقوة الجيش ولكن هذا الجيش من حيث قوامه لم يكن آشورياً، فأشور بانيبال نفسه أقدم بعد الانتصار على عيلام على استكمال صفوف أفراده التي قل عددها بالأسرى العيلاميين. فهل ستصمد آشور التي تملك سنداً كهذا طويلاً؟ إن الآشوريين الأذكياء وقبل الجميع آشور بانيبال نفسه رأوا أن الكارثة تتقدم، وهم أنفسهم اعترفوا أن آشو أبغضت العالم كله فكيف ستنفجر دائرة الكراهية المتوترة المملوءة حقداً؟ ورأى آشور بانيبال أن النجاة الوحيدة هي في بابل.

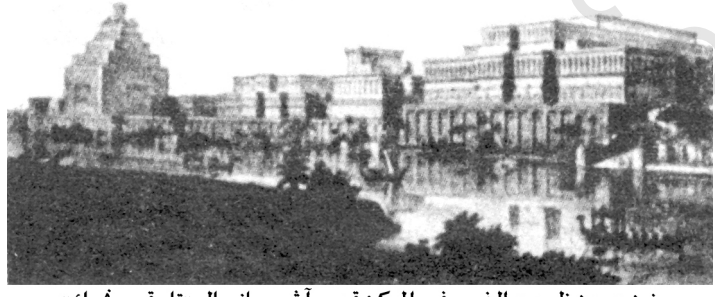

نينوى منظر من الغرب في المركز قصر آشور بانيبال «تل قويونجيك»

أ- ترد عند البعض باسم مادي وماديون بدلاً من ميديا وميديون.
ب- يطلق عليهم البعض اسم الاسقوثيون بدلاً من السكيث - المترجم.

فهو لم يستطع منع البابليين من الثورة ولكن بانتصاره عليهم لم يدمر بابل، وحاول مرة أخرى تحقيق فكرة الثنائية الأشورية البابلية التي عليها يتوقف بقاء آشور.

وبعد الاستيلاء على بابل بوقت قصير وجه آشور بانيبال نداءً إلى مواطنيه مسمياً إياهم «الرجال الممتازون» ناسباً نجاحاته للإله مردوك والإله تساربانيت اللذين من أجلهما عفا عن البابليين.

ففي بابل وبارسيب والكوت وسيبار نظفت الشوارع بسرعة من الجثث ودفنت وفقاً لطقوس المعابد، وجرت الاستعدادات لاستقبال السنة الجديدة ووصول آشور بانيبال[1] وفي سنة ٦٤٧ ق.م في عيد رأس السنة الجديدة أخذ آشور بانيبال نفسه «بيد الإله بعل» وصار ملكاً لبابل باسم كاندالان وحافظت بابل على استقلالها الذاتي في وحدة ذاتية مع آشور.

والحق يقال أن أراضيها صارت الآن أقل مما كانت في عهد شمش - شوم - أوكين فأوروك ظلت تحت حكم بابل أما نيبور فذهبت إلى الإمبراطورية الآشورية وجعلتها حصن سيادتها على بابل.

وأجرى آشور بانيبال جملة من الإصلاحات المهمة جداً التي أبدت تأثيراً على مصير بابل. ففي حولياته وبعد وصفه للتنكيل بأنصار شمش - شوم - أوكين يقول: «ولبقية مواطني بابل وكوت وسيبار الذين نجوا من الوباء والمذابح والجوع أبديت الرحمة وأمرت بالإبقاء على حياتهم وإسكانهم في بابل»[2].

والحديث يدور هنا لا عن إنزال الناجين من سكان الكوت وسيبار في بابل فهم ما زالوا يعيشون في مدنهم، ولكن عن تعميم الجنسية البابلية عليهم واعتباراً من ذلك التاريخ دخلت الكوت وسيبار في قوام الدولة - المدينة البابلية، شاملة بهذا الشكل كل المنطقة شمالي بابل وبلاد أكاد.

وأعار آشور بانيبال الجنوب الكلداني اهتماماً ليس بقليل وقد أعرب بذاته قائلاً: «دست كلدة وشددت عليها نير الإله آشور».

ففي عام ٦٤٨ ق.م كانت جميع الإمارات الكلدانية في بابل قد زالت وأدخلت إدارة إقليمية آشورية إلى الجنوب وصار الرخ بعل - إبنِ على رأسها، وخرج تعريف «الكلداني» في بابل نفسها من الاستخدام وكسر الحاجز العرقي بين الكلدانيين والبابليين، وشكل الكلدانيون الذين أصبحوا بابليين أكثرية سكان البلاد، ولهذا السبب سميت الشعوب المجاورة سكان بابل كلدانيين.[3]

وصارت هذه الإجراءات ممكنة نتيجة لسحق الأرستقراطيين البابليين والأعيان القبليين الكلدانيين الذين تمسكوا بعناد ضد انتزاع امتيازاتهم وأعاقوا تضافر سكان بابل واتحادهم مع الآشوريين.

والآن حلت نهاية انفصالية المدن البابلية عن الإمارات الكلدانية ومنافساتها وصداماتها.

وفي الوقت نفسه استكمل ذلك الانقلاب الزراعي الذي بدأ في عام «٦٨٩ - ٦٧٨ق.م» وسقطت ملكية الأرض الارستقراطية نهائياً. ولم يبق في بابل عقارات «أطيان» خاصة تقريباً وبقي فيها فقط تسميات النقاط الآهلة بالسكان والقنوات باسم مالكيها السابقين وعلامات الحدود الـ «كودورو»[أ] مع الكتابات التي تحتوي على كشف بملكية العقار أو الضيعة، وانتعشت ملكيات الأرض الخاصة الصغيرة والمتوسطة وكذلك الرعوية البابلية القادرة على أداء الخدمة العسكرية والمهمات الأخرى وخرجت بابل من التجربة التي وقعت على كاهلها معافاة قوية.

واهتم آشور بانيبال بالرخاء المادي للمواطنين البابليين وروجعت حقوق الملكية التي انتهكت في زمن الحرب «٦٥٢-٦٤٨ ق.م» بدقة واستعيدت وتعززت في بابل طبقة السادة مالكي الأرض الميسورين التي انتمت إليها على سبيل المثال أسرة: عا - ايلوت - باني «عائلة باني» الكلدانية الأصل ورأسها «رب العائلة أو رئيسها» بوخ - خورو المقيم في بارسيب التي وسعت دائرة ملكيتها العقارية في زمن الحرب على حساب المواطنين المفلسين، فمثل هؤلاء الملاك الأقوياء يجب أن يكونوا هيكل الرعوية البابلية التي هي دعامة الإمبراطورية الآشورية.[4]

وأدخل آشور بانيبال في قوام النخبة الآشورية الحاكمة عدداً غير قليل من البابليين وحتى في زمن الحرب مع شمش - شوم - أوكين وحلفائه قاد القوات الآشورية بعل - إبنِ الكلداني والبابلي مردوك - شارو - اوتسور ومردوك - ابلو - إدين.

وتوخت سياسة آشور بانيبال تجاه بابل هدفاً رئيساً واحداً. هو أن يحقق في حياته فكرة الثنائية الآشورية البابلية إلا أن هذه الفكرة لم يقدر لها أن تتحقق فأشور بانيبال ما خلق سنداً وإنما لحداً للآشوريين.

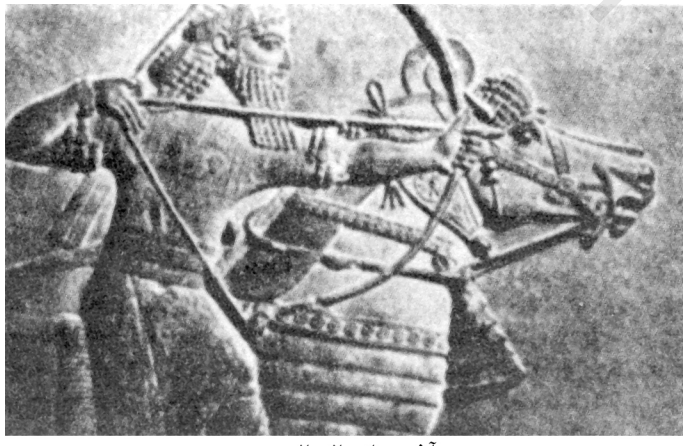
آشور بانيبال بالصيد

وأحبطت العسكريتاريا الآشورية مرة أخرى - وفي هذه المرة بصورة نهائية - مساعي الحكام الآشوريين، ففي الثلاثينيات من القرن السابع قبل الميلاد توقفت حملات النهب «الحملات الاغتصابية» وانتقلت آشور إلى الدفاع ولكن جيشها المنحل

أ- تعادل في أيامنا أحجار التحديد والتحرير المساحية العقارية - المترجم.

نهائياً تعطش للغنائم وبابلية آشور بانيبال أثرت على العسكريتاريا الآشورية كالخرقة الحمراء على رأس الثور الهائج، فهي لم ترغب باقتسام السلطة مع أحد وبالأخص مع بابل الناهضة، ونظرت هذه العسكريتاريا إلى بابل كبلد محتل وغرضٍ مغرٍ للنهب ولم تهمهم جميع الأمور الأخرى.

وصارت مسألة وراثة العرش الآشوري مرة أخرى سبباً للتمرد العسكري العلني ففي سنة ٦٣٠ ق.م أبعدت زمرة العسكريتاريا آشور بانيبال عن السلطة وأجلست على العرش قائدها الجنرال سين - شوم ليشير، إلا أن مقاومة الانقلاب بدت قوية للغاية مما أجبر سين - شوم ليشير على أن يجلس إلى جانبه على العرش سين - شارو - إشكون أحد أولاد أولاد آشور بانيبال وفي هذه الحالة اتخذ سين - شارو - إشكون الاسم الثلاثي آشور - إيتيل - إيلان «الإله آشور - فارس الآلهة».

غير أن المعارضة لم تلق سلاحها وكان سندها آشور وبابل أيضاً، وانقسمت آشور إلى قسمين وبدأت بينهما الحرب الأهلية وأحرز العسكريون النصر ولكنهم على كل حال مضوا للتنازل لعدوهم وبقي سين - شارو - إشكون على عرش آشور وبقي لآشور بانيبال العجوز «الكاندالان» مملكة بابل. ولم يكن عنده أي قوة ولا رغبة في خوض النضال وتأثر بصورة خطرة جداً من فشل خططه:

«فعلت الخير لله وللبشر الأحياء منهم والأموات. فلماذا المرض الآن وكمد القلب والمصائب والهلاك يشدني، ولا تتوقف الحرب في البلاد والخلاف في بيتي والوشاة يتألبون دوماً ضدي، ومزاجي سيئ، أمضي الأيام بين الآهات والتنهيدات. في يوم إله المدينة. في يوم العيد كنت متكدراً ينبغي أن يجهز علي الموت إني كئيب بالويل والعويل، أبكي في النهار والليل إني أتنهد: ربي دع هذا للكافر، نعم إني أجل نورك ما دمت حياً لأني أفهم جيداً عدم إجلال الإله والآلهة»[5].

وانعكس الانقلاب على أحداث بابل الجنوبية حيث لم ينجح حاكمها بعل - إبن في الوقت المناسب بالإعراب عن ولائه لـ سينٍ - شارو - إشكون وسين - شوم - ليشير[6] ولأجل ذلك جرداه من السلطة وعينا بدلاً منه حاكماً لبلاد البحر نابو - ابلو - اوتسور «نابو بلاسر» الكلداني أيضاً وحفيد الأمير الداكوري شمش - إبنِ الذي أعدمه سنحاريب في عام ٦٧٨ ق.م بسبب العصيان.

وبهذا الصدد اعتبر تعيين آشور - إيتيل - إيلان «سين - شارو - إشكون» ضرورياً لرد الاعتبار لذكرى شمش - إبنِ وإعادة رفاته إلى الوطن حيث دفنت هناك بصورة مهيبة.

وكان لبلاد البحر نظراً لمحاربيها الكلدانيين الكثيري العدد أهمية كبيرة للغاية بالنسبة لآشور ولذلك أحس نابو بلاسر أن ثقة النظام الجديد به إلى حد ما لم تكن متينة لذلك كان حريصاً على ضمانها بكل الوسائل.

وتوفي آشور بانيبال «الكاندالان» في أيار عام ٦٢٧ ق.م وسارع سين - شارو - إشكون وسين - شوم - ليشير للاستيلاء على بابل الباقية من دون ملك، وفي إحدى ليالي شهر أيار أدخلوا حاميتهم إلى المدينة إلا أن البابليين لم يتوقعوا أي شيء

حسن من العساكر الآشورية ولم يُجمعوا على الخضوع لسلطتهم وانقضوا ليلاً على الجنود الآشوريين وطردوهم من المدينة، لقد ثارت بابل ضد الآشوريين وقبل أن يصل النبأ عن وفاة آشور بانيبال ببعض الوقت قام نابو بلاسر في الجنوب بعصيان محاولاً أن يصبح ملكاً على بابل واحتل أوروك على الفور وما لبث أن طوق في شهر أيار عام ٦٢٧ ق.م مدينة نيبور حصن الآشوريين في بابل، ولم يتوقع النيبوريون الهجوم لأن الأمر حصل قبيل موسم الشعير ولم ينجحوا في التزود بالمؤن، وصارت الحياة في نيبور المحاصرة معروفة بفضل اللقى التي وجدها علماء الآثار الأمريكان في عام «١٩٥٠-١٩٥١ م» في خرائب المدينة في مطمورة خلف أحد البيوت على أرشيف المواطن النيبوري نينورتا - أوباليت.

وتعود عدة وثائق من هذا الأرشيف إلى الأشهر من أيار حتى آب من عام ٦٢٧ ق.م. عندما حاصر نابو بلاسر نيبور وهذا هو ما ابتلوا به: «دافع النيبوريون عن مدينتهم بصلابة ولكنهم عانوا من الجوع فسعر الشعير قفز عالياً إلى شاقل واحد «٨.٤ غ» من الفضة للسوتو «٥ ليتر» وهذا يعني أنه كان أعلى بثلاث مرات عما كان في بابل في زمن الحصار سنة «٦٥٠-٦٤٨ ق.م» وبثلاثين مرة عن المعتاد وباع النيبوريون أطفالهم للمضاربين بالمواد الغذائية لكي ينقذوهم وأنفسهم من الموت جوعاً. وفي إحدى وثائق الأرشيف يقول «قالت غوغالا لنينورتا - أوباليت هكذا: ابنتي ري - إندو عاقلة ونشيطة لكنها ستصير جارية لك إذا أنت أعطيتني ستة شاقلات «٥٠.٥ غ» من الفضة لكي أقدر أن أتناول شيئاً من الطعام «أنا أن آكل» وحول مثل تلك الحالات يدور الكلام في عدة وثائق أخرى مخبأة في المطمورات.

ونينورتا - أوباليت بالضبط كان أحد الأنذال الذين ابتزوا مواطنيهم الواقعين في المصائب ومن الواضح أنه راهن على سقوط نيبور ولكن النيبوريين احتملوا الحصار وبعد انتهائه تذكروا أولئك الذين أثروا على حساب معاناتهم وجعلوا منهم عبيداً. وبدأ نينورتا - أوباليت بسرعة بإزالة آثار جرائمه التي دلت عليها وثائقه واستغرق في النوم في مخبأ في خلفية بيته ولكنه في الحالتين لم ينجُ من العقاب. أما الوثائق فرقدت في المطمورة ٢٥٧٧ عاماً إلى أن اكتشفها علماء الآثار.[7]

ولم يستطع الآشوريون أن يحتملوا سقوط نيبور التي سيؤدي سقوطها إلى إجلائهم التام عن بابل، فقد وصلت طليعتهم في شهر آب سنة ٦٢٧ ق.م إلى الحدود البابلية وأحرقت معسكر شازناك، وفي أيلول دخلت القوى الأساسية الآشورية في المعركة وأرسلت تماثيل الآلهة على عجل من مدينة كيش الواقعة على طريق اقتحام العدو لبابل.

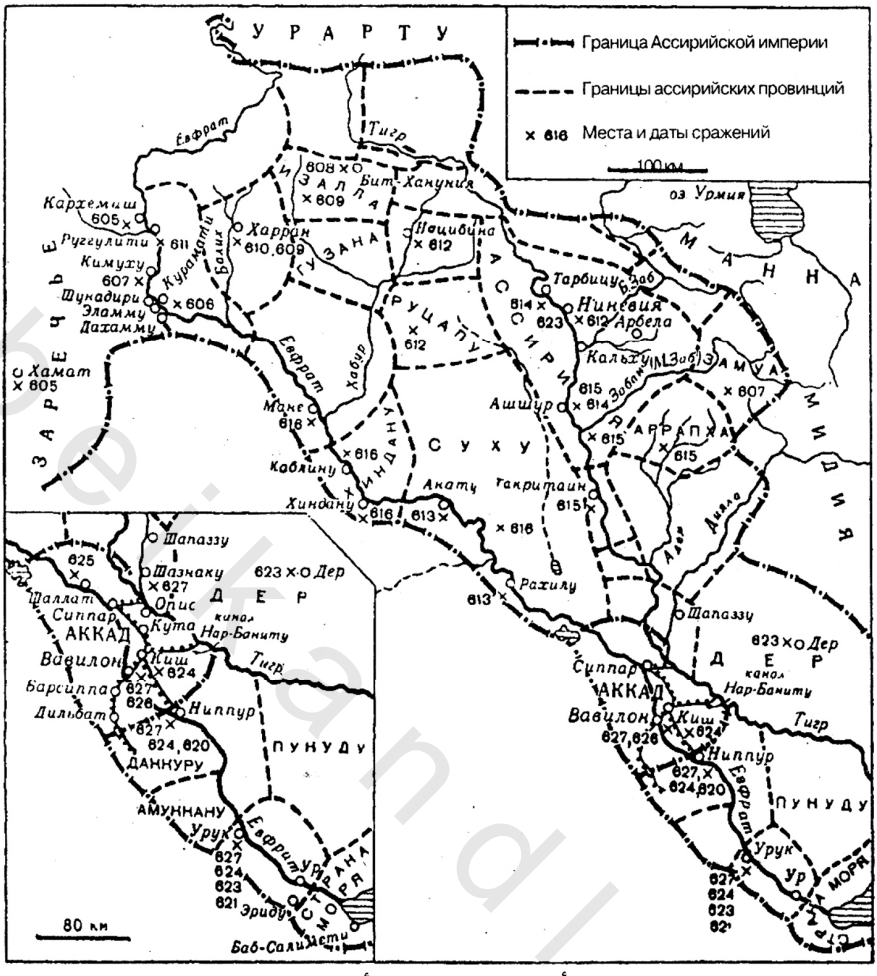

حرب بابل من أجل الاستقلال في الأعوام «٣٢٧-٦٠٥ق.م»

ولكن الآشوريين أسرعوا إلى نيبور وعند اقترابهم لم يقرر نابو بلاسر القتال وأخذ بالانسحاب بسرعة إلى الجنوب، وحاصره الآشوريون في أوروك ولكن لم يستطيعوا الاستيلاء على هذه المدينة، وحطمهم نابو بلاسر في وقت الانطلاقة التي قام بها الجنود المحاصرون وأجبرهم على الانسحاب، وهكذا لم يستطع الآشوريون إخماد الثورة في بابل وهي في المهد وصار عليهم أن يخوضوا في الوقت الحاضر حرباً عنيفة يتوقف على نتيجتها مصير إمبراطوريهم.

أما الإمبراطورية فقد بدأت بالانهيار، فعيلام التي سحقت في الأعوام «٦٤٧-٦٤٥ ق.م» خرجت من تحت السلطة الآشورية. وفي الغرب لم يتوقف الملك اليهودي يوشيا فقط عن دفع الأتاوة ولكنه صار يستولي على الأقاليم الفلسطينية التابعة للآشوريين.

وإن خسارة بابل في مثل هذا الموقف تعني نهاية الإمبراطورية وفهم الآشوريون هذا وتهيؤوا بدقة لحملة جديدة وبدؤوها في شهر أيار من عام ٦٢٦ ق.م في الوقت الذي ينضج فيه القمح، في بابل وخلال الصيف بأكمله اكتسح الجيش الآشوري البلاد، وفي الخريف تقدم باتجاه بابل ولكن البابليين لم يسمحوا بحصار المدينة وخرجوا في ١٠ تشرين الأول سنة ٦٢٦ ق.م لملاقاة العدو وحطموه بمعركة «ميدان» مكشوفة واستردوا الغنائم المنهوبة، وكان للهزيمة على مشارف بابل عند الآشوريين نتيجة سياسية يرثى لها. وبقي حتى الآن في بابل بؤرتان معزولتان وفي بابل لم يكن هناك ملك بعد موت الكاندالان ملكاً «آشور بانيبال» وحلقة معروفة من المواطنين «الزعماء المشرفون على المعابد وعملائهم» لا تريد وجوده، إلا أن الموقف القتالي كان بحال لا يستطيعون فيه تحقيق هذه الرغبة، فما زالت آشور عدواً لدرجة رهيبة بحيث لا تصمد بابل بمفردها في الصراع معها. واتجهت أنظار البابليين بالطبع إلى نابو بلاسر المتحارب مع العدو المشترك.

وسبق أن اعترفت سيبار إحدى كبريات مدن البلاد في شهر أيلول من عام ٦٢٦ ق.م بنابو بلاسر ملكاً على بابل وبدأ الزعماء الأغنياء بالرضوخ، وفي ٢٣ تشرين الثاني من عام ٦٢٦ ق.م صار نابو بلاسر المعلن رسمياً ملكاً على بابل، وبذلك اتحدت قوى بابل الثائرة، وشرع نابو بلاسر بعد اعتلائه العرش البابلي في الحال بالبحث عن الحلفاء ووجدهم بشخص المديانيين.

فالمديانيون كانوا الشعب الأول الذي حطم النير الآشوري سنة «٦٧٤-٦٧٢ ق.م» وقبيل منتصف القرن السابع توحدوا تحت حكم الملك ديوكا «٦٤٧-٦٢٥ ق.م» ابن وخليفة ديوكا فراورت «٧٠٠-٦٤٧ ق.م» الذي أخضع لسلطته مجموعة شعوب إيران بما فيهم الفرس.

وحوّل ميديا إلى دولة قوية والآن جاء يجرّب القوى في ميدان الحرب مع آشور.

وفي نيسان من عام ٦٢٥ ق.م وصل إلى بابل نبأ رهيب: لقد خرج الآشوريون في حملة وسلكوا في هذه المرة وادي الفرات وليس وادي دجلة طريقهم المعتادة، وظهر أن أول المبشرين بالنكبة هم أصنام وسكان معسكر شاباز الحدودي الواصلين إلى بابل، وفي ١٢ أيار جلبت الآلهة من مدينة سيبار إلى بابل وفي اليوم التالي نهب الآشوريون معسكر شالات الواقع على مسيرة يوم - يومين من مدينة سيبار.

إلا أن الآشوريين لم ينجحوا في الاستمرار في حملتهم التي استهلت بنجاح، لأن الملك الميدي فراورت اعتدى على الحدود الآشورية. وتحول الجيش الأشوري على الفور ضد ميديا وانتهت محاولة نابو بلاسر في ٢٩ تموز سنة ٦٢٥ ق.م لاسترداد شالات من الآشوريين بالفشل، وفي ذلك الوقت تكبد فراورت الهزيمة في معارك دامية مع الآشوريين وقتل فيها.

لقد صمدت آشور ولكن خسائرها كانت عظيمة لدرجة أن الجيش الآشوري استطاع فقط بعد مضي ١٥ شهراً أن يستأنف الأعمال القتالية في بابل.

وما أن انتهت فيضانات الفرات في آب سنة ٦٢٤ ق.م هاجم الآشوريون بابل وأقاموا معسكراً على قناة نار - بانيت ولأنهم محميون من الشمال بهذا الخط المائي ونيبور الوفية تقع في الموخرة. حاصروا أوروك. ولم ينجح نابو بلاسر في تقديم المساعدة للمدينة فسقطت أوروك.

قادة سكيثيون تصوير على كاس شعائري «طقسي» من تل مقبرة غاينانوف عند قرية بالكي في إقليم زابوروجيه

وبهذا النصر أنهى الآشوريون الحملة وعادوا إلى الوطن، وحاول نابو بلاسر أن يأخذ بالثأر فأنقض في شهر تشرين الأول عام ٦٢٤ ق.م على نيبور ولكنه في هذه المرة أيضاً مني بالفشل وحلت الأيام السود على بابل. لأن الآشوريين استولوا على كامل بابل الوسطى وقبضوا على بابل بطوق، متحركين ببطء، ولكن بثبات تقدموا نحوها ولكن حدث انعطاف في مجرى الحرب لأن نابو بلاسر نجح في عام ٦٢٣ ق.م في إثارة انتفاضة في إقليم دير «إلى الشمال الشرقي من بابل» الآشوري. وبهذا الشكل يكون قد كسر الطوق الآشوري وأمن لنفسه اتصالاً مع ميديا.

وحاصر البابليون أوروك في شهر آب ولكن في أيلول ظهر الملك سين - شارو - إشكون بنفسه على رأس الجيش، ولكن الآشوريين لم يستطيعوا أن يحققوا نجاحاً وإنما تمكنوا فقط من تعزيز حامية نيبور التي انتزعها العرب الذين جاؤوا لمساعدة بابل أولاً، ثم تبع ذلك أخبار عن اعتداء ميدي جديد على آشور.

واستخلص الملك الميدياني كياكسار «٦٢٥-٥٨٥ ق.م» ابن وخليفة فراورت المقتول خبرة من هزيمة أبيه وأعاد تنظيم الجيش الميدياني في مدة قصيرة محولاً إياه من قوات مدنية قبلية غير منظمة إلى ميليشيا وطنية موزعة حسب صنوف الأسلحة

وقادرة على القتال مع الآشوريون. وتقدم كياكسار في عام ٦٢٣ ق.م مباشرة باتجاه نينوى وحاصرها. وخيم على آشور خطر رهيب ولكن ساعة موتها لم تحن بعد!

ففي سير الحرب تدخلت على نحو غير متوقع قوة جديدة - السكيث هذا الشعب القبلي المترحل الذي جاء بحدود القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد من سهوب آسيا إلى المناطق المتاخمة للبحر الأسود وطردوا من هناك الكيميريين الذين هربوا إلى ما وراء جبال القفقاز يتعقبونهم بحيث ظهروا في سبعينيات القرن السابع قبل الميلاد على حدود آشور، وعقد معهم الملك أسرحدون اتحاداً وأعطى ابنته زوجة لملكهم بروتوتيا «بارتاتوا» والآن انقض السكيثيون بقيادة مادي ابن برتوتيا على الميديين وانتصروا عليهم.

ونجحت آشور غير أنها دفعت لقاء ذلك الاكتساح الكامل لممتلكاتها باجتياح الميديين والسكيث الذين جاؤوا كالعاصفة الهوجاء عبر ميزوبوتاميا وسورية وفلسطين، ووصلوا إلى حدود مصر وتخلص بسماتيك الأول من عدوانهم بمشقة بالغة بدفع الأتاوة لهم، واستولى الرعب على سكان آسيا الدنيا «هو ذا شعب قادم من أرض الشمال وأمة عظيمة تقوم من أقاصي الأرض. تمسك القوس والرمح. هي قاسية لا ترحم.؟ صوتها كالبحر يعج، وعلى خيل تركب مصطفة كإنسان لمحاربتك يا ابنة صهيون» هكذا قال عن السكيث النبي اليهودي إرميا.[8]

وهكذا بدأت سيادة السكيث على غرب آسيا التي استمرت ٢٨ عاماً «من سنة ٦٢٣/٦٢٢-٥٩٥/٥٩٤ ق.م» ورقدت تحت حوافر خيولهم الوحشية السريعة أغنى بلدان العالم المتحضرة، التي كانت هدفاً للبدو للنهب ولجمع الأتاوات. ولم يهتم السكيث كثيراً بالحياة الداخلية ولا بالصلات العرقية المتبادلة بين الشعوب المقهورة، فهم طلبوا منهم فقط الأتاوات والمفارز المساعدة، ولم تستطع آشور أن تتعافى من الضربة الميدية ولا من «المساعدة» السكيثية وبانتهاز ذلك أوصل نابو بلاسر حصار أوروك إلى النهاية واحتلها، وانتهت محاولات الآشوريين لاستعادة أوروك في صيف ٦٢٠ ق.م إلى الفشل، واحتل نابو بلاسر حالاً مدينة نيبور وطرد العدو نهائياً من حدود بابل.

وحمل العدوان السكيثي آشور إلى البحث عن حلفاء لها ووجدتهم بشخص جيرانها الشماليين دول أورارتو - ودولة مانا التي هددها السكيثيون بالدرجة الأولى، وانضمت مصر العدو اللدود للآشوريين إلى هذا التحالف. فالآن رأى الفرعون بسماتيك الأول في آشور حاجزاً يغطي حدود مصر من السكيث، واتخذت حرب بابل من أجل الاستقلال طابعاً «سليماً» يشمل كل الشرق الأدنى، وأصبح الآن شمال ميزوبوتاميا الأرض الأم لآشور المسرح الرئيس للأعمال القتالية.

وفي نيسان عام ٦١٦ ق.م قاد نابو بلاسر الأفواج البابلية إلى أعالي وادي الفرات وقدمت إقليم سوخ وخندان الآشورية إليه الأتاوة من دون مقاومة، وفي ٢٣ تموز هزم البابليون الآشوريين والمانيين القادمين إليهم للمساعدة في المعركة عند مدينة كابلين وبعد ذلك نهبوا الممتلكات الآشورية في حوض البليخ رافد الفرات.

وعاد نابو بلاسر في آب عام ٦١٦ ق.م إلى بابل مثقلاً بالغنائم والأسرى، ولكن في شهر تشرين أول ظهر المصريون في وادي الفرات لمساعدة الآشوريين ووصل الحلفاء حتى مدينة كابلين ولكن لم يتجاسروا على اقتحام التخوم البابلية. ومقابل هذا تحرك نابو بلاسر في آذار من عام ٦١٥ ق.م بعد فترة راحة قصيرة مباشرة إلى آشور وعلى حدودها عند نهر زابان «الزاب الصغير» ألحق الهزيمة بالآشوريين واستحوذ على الأسرى والغنائم وعاد البابليون على الضفة اليمنى لنهر الدجلة دون أي عائق إلى الوطن.

وفي ١٥ أيار عام ٦١٥ ق.م قام نابو بلاسر من جديد بحملة كان هدفها هذه المرة مدينة آشور العاصمة القديمة للآشوريين، ولم ينجح البابليون في الاستيلاء عليها. من الحركة وفي حزيران وصل الجيش الآشوري الرئيس وعلى رأسه الملك سين - شارو - إشكون إلى مشارف المدينة، واضطر البابليون إلى الهرب وتعقبهم العدو على أعقابهم وأنقذت قلعة تكريت «تكريتاين» الواقعة على الضفة اليمنى لنهر دجلة الموقف، فالآشوريون هاجموها عشرة أيام على التوالي ولكن الحامية البابلية صدت بجسارة جميع هجماتهم، ونجح نابو بلاسر بالانفصال عن العدو وتراجع الآشوريون متكبدين خسائر كبيرة. وفي ذلك الوقت تعافى الميديون من اعتداء السكيث واستأنفوا الأعمال الحربية ضد آشور واندفعوا في شهر تشرين الثاني عام ٦١٥ ق.م داخل إقليم أراباخ الآشوري واقتربت حلبة الصراع إلى حدود الأراضي الآشورية الأصلية وبدأت سكرة موت آشور ومنازعتها.

وظهر الميديون في تموز سنة ٦١٤ ق.م في ضواحي نينوى واستولوا على ضاحيتها تاربيتس وبعد ذلك انتقلوا عبر الدجلة وانحدروا مع تياره «نزولاً» واحتلوا مدينة آشور ونهبت المدينة وخربت بلا رحمة وقتل قسم من سكانها والقسم الآخر سيق إلى الأسر.

وعندما انتهى كل شيء عند آشور ظهر نابو بلاسر مع الجيش البابلي وقد تأخر هو عمداً عن القدوم لمساعدة الميديين لأن آشور إن بدت بالنسبة لهؤلاء الأخيرين مدينة للعدو البغيض الذي لا يستحق أي نصيب من العطف سوى تدميره بلا رحمة فإن البابليين ينظرون لها خلافاً لذلك لأنهم وإن تحاربوا مع الآشوريين فإنهم لم ينسوا حتى ولا دقيقة الأخوة معهم. وكانت مدينة آشور القديمة ومعابدها مقدسة بالنسبة لهم أيضاً كمدينة بابل ومعابدها. وهذه كلها تفسر تأخر نابو بلاسر فهو لا يستطيع إيقاف الميديين وإنقاذ آشورياً من الموت ولكنه ما رغب بالمشاركة بنفسه في تدنيس هذه المقدسات.

وعند خرائب مدينة آشور التي ينبعث الدخان منها التقى البابليون مع الميديين في نهاية آب سنة ٦١٤ ق.م وعقد نابو بلاسر والملك الميدي كياكسار فيما بينهما معاهدة تحالف وطدت بزواج الأمير نبوخذ نصر ابن نابو بلاسر بالأميرة الميدية آميتيس «آموخيان» وقام الآشوريون بمحاولة يائسة لطرد الأعداء خارج حدودهم ونجحوا في أيار سنة ٦١٣ ق.م بإشعال الثورة في إقليم سوخ الذي احتله البابليون

سنة ٦١٦ ق.م وفي الحال تحرك نابو بلاسر في حملة واستولى في ١٠ حزيران على مدينة راخيل «راحيل».

ولكن خالفه حسن الحظ بعد ذلك لأن قلعة أناة الواقعة على جزيرة صغيرة في وسط الفرات صمدت في وجه الاقتحام البابلي وأجبر اقتراب القوات الآشورية الرئيسة نابو بلاسر على الرحيل إلا أن هذا النجاح الجزئي أيضاً لم يستطع إنقاذ آشوريا.

ووقعت الكارثة في عام ٦١٢ ق.م حيث بدأ نابو بلاسر وكياكسار بوقت واحد السير التوجه إلى نينوى. وظهر السكيثيون مرة أخرى على الحلبة في هذا الوقت وتعلق الآن مصير الحملة على أي جهة سوف يميلون إلى الآشوريين أو إلى أعدائهم، وأنقذ كياكسار الموقف فقد توجه بشجاعة مع حاشية صغيرة إلى معسكر مادي ملك السكيثيين كموال وتابع ودافع أتاوة ونجح باستدراج السكيثيين إلى المشاركة في تحطيم نينوى، وتغلب توقع الغنائم الهائلة على كل الاعتبارات الأخرى، وتحرك البرابرة إلى العاصمة الآشورية. وتعتبر نينوى مدينة كبيرة محصنة للغاية وصل محيط سورها إلى ١٢ كم. ومساحتها ٧٣٠ هكتار وعاش فيها ٣٠٠ ألف نسمة ودافعت عنها حامية غفيرة العدد قادرة على المقاتلة وهي القوة الرئيسة للجيش الآشوري. ودام حصار نينوى ثلاثة أشهر، من شهر حزيران حتى آب عام ٦١٢ ق.م. وجرت الأحداث بحسب الروايات القديمة المتفرقة ونتائج تنقيبات علماء الآثار تقريباً هكذا. اختار المهاجمون الزاوية الشمالية الشرقية من سور نينوى وهو القسم الأعلى والأضعف لاقتحام المدينة. وبعد تحطيم الآشوريين في ثلاث معارك استولى الميديون والبابليون والسكيثيون على منظومة التحصينات الأمامية والسدود «القناطر» التي بواسطتها تصل مياه خوتسور إلى الخنادق وبإفراغ الخنادق «تجفيفها» وصل النينويون ملاصقة إلى سور المدينة المرتفع لأكثر من ٢٠ متراً، وقربوا الأكباش إليه وكان قطاع الخندق الملاصق للزاوية الشمالية الشرقية من نينوى قد ردم بأنقاض الثلمة الكبيرة المعمولة بالسور، وهذا ما دلت عليه التنقيبات. ودافع الآشوريون بقوة ومهارة وأقاموا خلف الثلمة «الفجوة» خطاً جديداً من التحصينات، وأحبطوا هجوم المحاصرين، وبواسطة الخدعة الحربية تقرر مصير نينوى، حيث استفاد الحلفاء من أن انتباه الآشوريين مثبت إلى الثلمة التي في السور، وقاموا بتحويل نهر خوتسور إلى الخنادق التي تغطي الوجه الجنوبي للسور الشرقي واندفعوا على حين غرة إلى داخل المدينة في مجرى عبر القنطرة النهرية، وجرت في شوارع العاصمة الآشورية مشاهد التنكيل الوحشي من الغالبين للمغلوبين، فالحقد المتراكم قروناً ضد الآشوريين وفي طليعتهم النينويون انفجر خارجاً «ويل لمدينة الدماء كلها ملآنة كذباً وخطفاً. لا يزول الافتراس. صوت السوط وصوت رعشة البكر وخيل تخب ومركبات تقفز وفرسان تنهض ولهيب السيف وبريق الرمح وكثرة جرحى ووفرة قتلى ولا نهاية للجثث. يعثرون بجثثهم من أجل زنى الزانية الحسنة

الجمال صاحبة السحر البائعة أمماً بزناها وقبائل بسحرها»[9] هكذا قال النبي ناحوم الالقوشي الأسير اليهودي الذي قيض له أن يكون شاهد عيان لسقوط نينوى.

لقد أمسك المنتصرون الصغار من أرجلهم وحطموا رؤوسهم على جدران البيوت، والوجهاء الآشوريون المتعجرفون المكبلون بالسلاسل وزعوهم بالقرعة، والملك الآشوري سين - شارو إشكون أحرق قصره ومات بالنار لكي ينجو من الأسر. ومكتبة آشور بانيبال الموجودة في الطابق الثاني من القصر انهارت أثناء الحريق، وكثير من الرقم «الألواح» الطينية تحطمت أثناء ذلك ولكن لم تتلف كلها متحولة بتأثير النار إلى آجر حيث عثر عليها بهذا الشكل أثناء التنقيبات.

وبالمناسبة يقال أن أوائل «علماء الآثار» العاملين في التنقيبات بقصر آشور بانيبال كانوا هم الجنود البابليون لأنهم أثناء وجود حلفائهم الميديين والسكيثيين الشجعان في الشوارع نبشوا، خلسة عنهم، من الرماد كمية كبيرة من الذهب والفضة المنصهرة من النار التي عربدت في القصر[10] ومع ذلك كانت الغنائم لدرجة لا تحصى بحيث كفت الجميع.

وترك المنتصرون خلفهم الخرائب والدخان المتصاعد ماتت نينوى، والمصير نفسه حل بآشور وكلخ وأربيل ودور شاروكين والمدن الآشورية الأخرى. والآشوريون الناجون من المذابح إما سيقوا إلى الأسر وإما تفرقوا راكضين، وعوملوا بالضبط كما تعاملوا عادة مع المغلوبين.

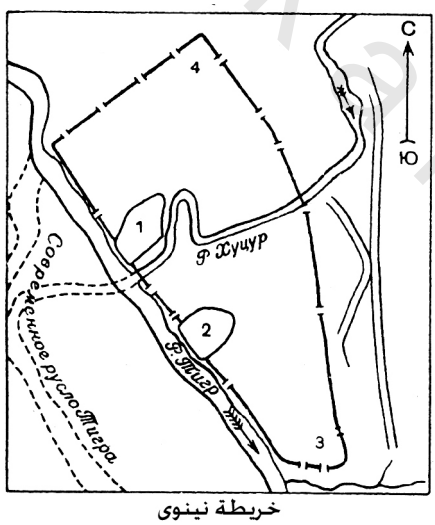

خريطة نينوى

١ ـ قصر آشور بانيبال «تل قويونجيك»
٢ ـ قصر سنحاريب «تل النبي يونس يونان».
٣ ـ ألبوابه الشرقية «مدخل جموع الشعوب»
٤ ـ مكان التفرق في السور عند اقتحام نينوى.

وترك سقوط نينوى انطباعاً هائلاً في العالم المجاور من السعادة والابتهاج للشعوب التي رزحت تحت النير الآشوري «أين مأوى الأسود ومرعى أشبال الأسود. حيث يمشي الأسد واللبوة وشبل الأسد وليس من يخوف الأسد المفترس لحاجة جرائه والخانق لأجل لبواته، حتى ملأ مغاراته فرائس ومآويه مفترسات. هتف النبي ناحوم ويجيب: «نَعِسَتْ رُعَاتُكَ يا مَلِكَ أَشُّورَ. اضْطَجَعَتْ عُظَمَاؤُكَ. تَشَتَّتَ شَعْبُكَ عَلَى الْجِبَالِ ولا مَنْ يَجْمَعُ. لَيْسَ جَبْرٌ لانْكِسَارِكَ. جُرْحُكَ عَدِيمُ الشِّفَاءِ. كُلُّ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ خَبَرَكَ يُصَفِّقُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَيْكَ لأَنَّهُ عَلَى مَنْ لَمْ يَمُرَّ شَرُّكَ عَلَى الدَّوَامِ؟».[11] (ناحوم ٣: ١٨-١٩)

وفي ١٤ أيلول سنة ٦١٢ ق.م ترك الميديون وملكهم كياكسار نينوى الخربة وارتحلوا إلى الوطن بحصتهم من الغنائم والأسرى، وبعد الانسحاب نهب كياكسار

والبابليون أقاليم نصيبين - وروتساب الآشورية في شمال ما بين النهرين واستقطع لنفسه منطقة آشور، والقسم الأكبر من الغنائم بقي تحت تصرف السكيثيين وزعماء آسيا الدنيا.

ولكن الدولة الآشورية لم تمت بعد فالقسم الباقي «الذي نجا» من الجيش الآشوري والأشراف الآشوريين استمروا بالمقاومة العنيفة وصارت مدينة حران في الشمال الغربي من ميزوبوتاميا «ما بين النهرين» ملاذاً لهم.

وهنا اختاروا آشور - أوباليت الأخ الأصغر لآشور بانيبال الذي كان الكاهن الأول لآخو لخول معبد الإله سين «القمر» في حران ملكاً عليهم. واعتمد الآشوريون على مصر التي استندت إلى جميع القوى لكي لا تسمح للسكيثيين والميديين والبابليين بالاقتراب من حدودها، وبدأ البابليون في عام ٦١١ ق.م بالعمليات في منطقة حران واستولوا على مدينة روغوليت[أ] الواقعة عند مصب نهر الساجور بالفرات. ونشبت معركة حاسمة من أجل حران في العام التالي.

وقام نابو بلاسر بحملة من شهر أيار عام ٦١٠ ق.م حتى شهر تشرين الثاني واجتاح إقليم حران وانضم إليه السيكثيون في شهر تشرين وتحركوا معاً مباشرة إلى حران.

فتخلى الآشوريون والمصريون مذعورين عن المدينة وهربوا سريعاً إلى ما وراء الفرات ونهبت حران وأتلف السكيثيون معبد آخو لخول الشهير زيادة على ذلك، وتفرق الحلفاء في شهر آذار من عام ٦٠٩ ق.م إلى بلادهم وأوطانهم وبقي في حران حامية بابلية.

وأزعجت خسارة حران المصريين بشكل جدي فقام الفرعون نخو ابن وخليفة بسماتيك الأول المتوفى عام ٦١٠ ق.م على رأس جيشه بحملة في شهر حزيران عام ٦٠٩ ق.م وعند مدينة مجيدو الواقعة على طريق المصريين اعترضهم على حين غرة الملك اليهودي يوشيا مع قواته وقوبل طلب الفرعون بالسماح له بالمرور إلى الفرات بالرفض فنشبت المعركة. ومنذ بداية القتال أصيب يوشيا بجرح قاتل في حنجرته بسهم مصري، وهرب اليهود وأجلسوا مكانه على العرش ابنه يوآحاز وفي الوقت ذاته أسرع المصريون بسير حثيث إلى الشمال[12] وعند الاتحاد مع الملك الآشوري آشور أوباليت جاء الفرعون نخو إلى الفرات وهاجم حران ودارت معركة عنيفة طوال الصيف وصدت الحامية البابلية جميع هجمات المصريين والآشوريين بشجاعة وحافظت على المدينة.

وعندما تلقى نابو بلاسر مساعدة من الميديين تحرك في أيلول عام ٦٠٩ ق.م لمساعدة حران، ولما علم الفرعون نخو باقترابه رفع الحصار من دون قتال وتراجع إلى ما وراء الفرات وبقيت حران بأيدي البابليين.

ومن عام ٦٠٩ ق.م زال الآشوريون وملكهم أشور أوباليت إلى الأبد من صفحات التاريخ وسقطت آشور ولم تكن أي قوة قادرة على بعثها من جديد لأن

أ- بحسب الموقع على الخريطة هي مدينة روفلا شمال الزوغما. المترجم

الشعب الآشوري أنهى وجوده قبل هذه الأحداث بوقت طويل. وأحرز البابليون أكبر انتصار في تاريخهم.

ولكن عبثاً لو بحثنا في كتباتهم الكثيرة التي تركوها أي وصف لانتصارهم. فقط نابو بلاسر يذكر وعلى نحو غامض الانتصار على سوبا روما حيث سمي هكذا في ماضي الأيام شمال ميزوبوتاميا «بلاد ما بين النهرين» وفي كتابة أخرى يقول «الآشوريون الذين في قديم الأيام سيطروا على جميع الشعوب وألحقوا بنيرهم الثقيل خسارة بشعب البلاد «وهذا يعني بابل» إني ضعيف ووديع أضرع لسلطان الأرباب القادرين بقوة الإله ناوب والإله مردوك أن يحولوا «يعني الآشوريين» أقدامهم عن بلاد أكاد ويحطموا نيرهم»[13].

أما الملك نابونيد أحد خلفاء نابو بلاسر أكد بصراحة خلافاً للحقيقة أن البابليين لم يشتركوا أبداً في تدمير المدن الآشورية، وأن هذا كله كان بيد السكيثيين وحدهم ونابو بلاسر أيضاً حسب قول نابونيد إنه قد توسل إلى الآلهة، ودلالة على الحزن نام لا بمقصورة وإنما على الأرض.[14]

ويعود الانتصار على الآشوريين إلى عدد تلك النجاحات التي يخجلون في بابل من التذرع بها والتي بنتيجتها قضي على شعب شقيق صار عدواً لبابل فقط بحكم الظروف.

وندم البابليون بمرارة على ما حصل وفهموا أن النصر فرضه عليهم البرابرة والميديون والسكيثيون الذين رأوا فيهم ليس بلا سبب العدو الرهيب القادم لوطنهم.